

(فلسفة العلم والخطاب المعرفي الجديد)

د/ بوصالح حيدان، جامعة الجلفة

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى إبراز أهم التحولات المعرفية التي عرفت فلسفة العلم المعاصرة فقد تحول الاهتمام من البحث عن منطق ومنهج المعرفة إلى البحث في سؤال القيمة، لقد أعادت فلسفة العلم تفعيل مبحث القيم وربط الصلة بين العلم والفلسفة والأخلاق، وهذا ما جعل منها فلسفة اقرب إلى واقع الإنسان، وفلسفة عملية لا تقدم حلولاً نظرية فحسب بل تسعى إلى تغيير الواقع.

الكلمات المفتاحية: فلسفة العلم، الأخلاق، البيئة، البيواتيقا

Abstract:

The aim of this paper is to highlight the most important cognitive transformations that the contemporary philosophy of science has become. Attention has shifted from the search for logic and the methodology of knowledge to research in the question of value. The philosophy of science has revived the study of values and linked the link between science, philosophy and ethics. The reality of man and a practical philosophy, not only provide theoretical solutions but also seek to change reality.

مقدمة:

لكل عصر مشكلاته المعرفية والحضارية والاجتماعية، ولكل عصر علومه وفلسفته، وعصر اليوم هو عصر العلم والمعرفة العلمية، فما حققه العلم من تقدم خلال النصف الأخير من القرن العشرين فاق ما حققه خلال مجمل تاريخه، وقد أصبح في المقابل العالم أكثر تعقيدا نتيجة للتحديات التي تفرضها التطورات العلمية المتسارعة، خاصة في مجالات الفيزياء والإعلام والاتصال، والبيولوجيا، وما نتج عن هذه التطورات من مشكلات أخلاقية واجتماعية واقتصادية وبيئية، الأمر الذي يدعو إلى التساؤل عن قيمة الفلسفة، وفلسفة

العلم على الخصوص وسط المنظومة المعرفية، ودورها في الكشف عن تحديات هذا الواقع المعقد، والمساهمة في حل مشكلات الإنسان المعاصر.

تهدف هذه الورقة البحثية إلى إبراز مهام ودور فلسفة العلم في الكشف عن التحديات الناجمة عن التطورات التي عرفها العلم المعاصر وانعكاساتها على واقع الإنسان، انطلاقاً من مسلمة أساسية مفادها أن أغلب مشكلات الإنسان المعاصر هي مشكلات نابذة (بشكل مباشر أو غير مباشر) عن العلم وتطبيقاته التكنولوجية، ولذا تعد فلسفة العلم بفضل طابعها التحليلي النقدي لمبادئ وفرضيات ومناهج وطبيعة وأهداف المعرفة العلمية أصدق تعبير عن روح هذا العصر عصر العلم والتقنية.

فلسفة العلم من سؤال المعرفة إلى سؤال القيمة:

لقد ارتبط البحث في فلسفة العلم الكلاسيكية وحتى بداية النصف الأخير من القرن الماضي بمسائل الصدق والصواب والدقة واليقين وموضوعية الحقائق والنظريات العلمية وعلاقتها بالسياق التاريخي، وبالمنهج العلمي الصحيح الموصل إلى هذه الحقيقة العلمية، وبالقواعد والمعايير العقلانية التي يمكن على أساسها التمييز بين العلم واللاعلم، وبين العلم والأنماط المعرفية الأخرى، وبمعايير المفاضلة بين الفروض والنظريات العلمية المتنافسة، وقد شكل الاهتمام بالبنية الداخلية للعلم الركن الأساس لفلسفة العلم الكلاسيكية على اختلاف مدارسها وقد اعتبرت الفيزياء - في إطار هذا التوجه - معياراً للعلم، خاصة عند النزعة الوضعية والوضعية المنطقية بالخصوص، بل أصبحت فلسفة العلم فلسفة للعلوم الفيزيائية (1).

لكن التطورات التي شهدتها الفكر العلمي المعاصر على أثر الثورات العلمية المتتالية التي تحققت في مجال الرياضيات، والفيزياء النظرية، وفي مجال البيولوجيا، والإعلام والاتصال، وما تبع هذه الثورات كالحاسب الآلي، وبرنامج الذكاء الاصطناعي، ومشروع الجينوم البشري... قد أحدثت (هذه التطورات) تغييرات جذرية في ابيستمولوجيا العلم المعاصرة، حيث تحول الاهتمام من دراسة التركيب المنطقي للمعرفة العلمية، ومن دراسة العلم كشبكة من العلاقات المنطقية، والمعادلات الرياضية، إلى دراسة العلم في نموه وتفاعله مع عوامل ونشاطات معرفية وإنسانية، ومع بنيات حضارية وإنسانية واجتماعية كالتاريخ، والاكيولوجيا، والسوسيولوجيا، والسيكولوجيا، والثقافة والدين، والاديولوجيا.

فلم يعد البحث في الموضوعية والدقة واليقين والاتساق المنطقي للنظريات العلمية من الاهتمامات الأساسية لفلسفة العلم المعاصرة، بعد أن كشفت نظرية "النسبية"، ونظرية "الكوانتوم" أن الباحث العلمي ليس في

مقدوره أن يعتبر نفسه ملاحظا حياديا، بل مشاركا ، وجزءا من معادلة الطبيعة فالمبدأ الذي يحكم علاقة الإنسان بالطبيعة هو التكامل والمشاركة، وليس الاستقلال أو السيطرة.⁽⁶⁴⁾

كما أبرزت الفيزياء الكوانطية تجارب تخالف بعض مبادئ العقل الكلاسيكية كمبدأي الذاتية وعدم التناقض، وذلك من خلال إثبات الطبيعة الثنائية (الجسمية – الموجية) للضوء، وتم تجاوزا لبناء المنطقي التقليدي للعلم،⁽⁶⁵⁾ ومن هنا لم تعد مسألة البنية المنطقية والاتساق المنطقي للنظرية العلمية ذات أهمية خاصة لدى فلاسفة العلم، ولم تعد معيارا لقبولها أو رفضها.

ولم تعد لمسألة المنهج العلمي أهمية خاصة في فلسفة العلم المعاصرة منذ أعلن "بول فييرابند موت المنهج سنة 1975 من خلال مؤلفه المشهور « ضد المنهج »، الذي بين فيه أن مسألة البحث في المنهج مسألة زائفة، والفكرة القائلة بأن العلم يمكن له، وينبغي له أن ينتظم وفقا لقواعد ثابتة وكلية، هي فكرة مثالية وفكرة مضرة بالعلم، لأنها تهمل الشروط التاريخية والثقافية والايديولوجية المعقدة التي تؤثر في عملية التحول العلمي، وتجعل المشروع العلمي أقل مرونة، وأكثر دوغماتية.»⁽⁶⁶⁾

لقد أدى هذا التحول في التحليلات الاستمولوجية للفاعلية العلمية إلى تغيير اتجاه بوصلة فلسفة العلم المعاصرة من التركيز على النظرة الداخلية للعلم، أي بوصفه فاعلية تخصصية مستقلة من خلال التركيز على الأدوات الداخلية للنسق العلمي كدور الرياضيات، والمنطق والتجربة والفروض والتفسير والتنبؤ والصدق والموضوعية واليقين، إلى الاهتمام بالنظرة الخارجية للعلم أي بوصفه نشاطا إنسانيا يتأثر بالأبعاد الاجتماعية والإنسانية ويؤثر فيها، وقد أدى هذا التحول الى طرح إشكاليات لم تكن من اهتمامات فلسفة العلم الكلاسيكية، إشكاليات تتعلق بطبيعة العلاقة بين العلم والتقنية، العلم والمجتمع والسياسة، العلم والقيم والواقع ، العلم والأخلاق، ولعل أبرز تحول عرفته فلسفة العلم هو التحول من سؤال المعرفة العلمية إلى سؤال القيمة، ومن فلسفة للفيزياء إلى فلسفة لعلوم الحي والبيئة والأخلاق.

⁶⁴- بدوي عبد الفتاح: فلسفة العلوم - العلم ومستقبل الإنسان إلي أين؟ ، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة، 2007، ص 236.

⁶⁵- سالم يفوت : العقلانية بين النقد والحقيقة ، ص 83

⁶⁶- P332:Feuerabend . contre la méthode

فلسفة العلم ومشكلات البيولوجيا

شهدت العلوم المعاصرة ومنذ النصف الأخير من القرن الماضي تطورات مذهلة، وقد تسارعت وتيرتها أكثر في الثلث الأخير منه، وإذا كانت هذه الفترة قد عرفت ثلاثة ثورات علمية، ثورة الكم التي ساهمت بشكل حاسم في فتح آفاق جديدة أمام العلماء للتحكم في جزيئات المادة وتصميم أشكال جديدة للحياة، والثورة الإلكترونية التي مكنت من فهم والتحكم في أنظمة الذكاء، والثورة البيوجينية التي حدثت في مجال البيولوجيا، فإن هذه الأخيرة تعد أعظم هذه الثورات، بل هي ثورة العصر بامتياز

وإذا كان تاريخ العلم قد بين أن معظم الثورات العلمية كانت لها منعطفاتها الابيستمولوجية ومشكلاتها الفلسفية والنظرية على مستوى الموقف الأنطولوجي للكائن، فإن فما حققته الهندسة الوراثية والبيوتقنية من تقدم على إثر الاكتشافات العظيمة في مجال الاستنساخ واكتشاف الخريطة الشاملة للجينات البشرية (ثورة الجينوم) يشير إلى أننا دخلنا حقاً عصر البيولوجيا، بعد أن سيطرت مباحث ومشكلات الفيزياء على القرن الماضي، لقد توصلت البيولوجيا إلى اكتشافات أكثر أهمية وأكثر خطورة في آن واحد مما توصلت إليه الفيزياء ليس فقط بسبب تأثير هذه الاكتشافات على حياتنا اليومية من خلال تطويرها للطب، وعلاج الكثير من الأمراض، وخلق علم جديد في مجال التغذية، وإنما أيضاً بسبب تأثيرها على مواقفنا وآرائنا حول طبيعة الحياة،⁶⁷ وبسبب ما تطرحه من مشاكل أخلاقية على قدر كبير من الحساسية والخطورة، بالنظر إلى طبيعة مجال تطبيقاتها وما يثيره من شكوك حول مدى قدرة العلماء على التحكم بنتائجها وأغراضها الإنسانية المعلنة.

لقد أدت التطورات المتسارعة التي تحققت في مجالات الطب، والهندسة الوراثية، والتحليل الجيني إلى زعزعة الكثير من اليقينيات الخاصة بطبيعة الكائن الحي، وقد أفسحت المجال لتنبؤات جديدة أثارت حماساً كبيراً وسط العلماء، وقد أثارت في الوقت نفسه مخاوفاً مشروعة فيما يعود لتطبيقاتها التقنية من انعكاسات خطيرة على الإنسان والطبيعة، ولم تقتصر هذه المخاوف على الرأي العام فقط، بل نجدها أيضاً لدى العلماء أنفسهم، والدليل على ذلك أن مصطلح "البيوايثيقا" "bioéthique" - الذي يعد اليوم أخصب مجال للتعبير عن هذا الوضع - يرجع نحتة إلى عالم بيولوجي وهو طبيب السرطان الأمريكي "فان روسيلار بوتو" سنة 1970، الذي

⁶⁷ ناهدة البقصي: الهندسة الوراثية والأخلاق، (سلسلة عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون و الاداب الكويت)، العدد 175،

دعى في مؤلفه "البيواتيقا جسر نحو المستقبل" الى أن التقدم العلمي لابد أن يواكبه تفكير أخلاقي يتمثل في المراقبة الدائمة لممارسات العلم ولتطبيقاته التقنية، خاصة في مجال الطب والبيولوجيا (68).

فلم تعد العلوم البيولوجية مجرد علوم نظرية محضة بعد أن ولجت التطبيقات التقنية والصناعية مثل الطب والصناعة الصيدلانية والفلاحة الاصطناعية وغيرها من المجالات التي استفادت من تقنيات التحكم في البنية الوراثية، والتي أصبحت قابلة للتعميم داخل الزراعات النباتية والبكتيرية، ولا شك أن هذه الثورة العلمية الجديدة قد تعود بفوائد عظيمة على مستوى تطوير وسائل وطرق علاج الأمراض المزمنة، وتوفير تنوع غذائي يسد حاجيات البشر، لكن في مقابل ذلك ثمة شكوك حول المخاطر التي قد تنجم عن استغلال نتائجها لأغراض غير أخلاقية وغير إنسانية خصوصاً بعد تحكم رجال الصناعة وأصحاب المؤسسات الاقتصادية الكبرى في مستقبل الإنسانية من خلال تحويل المخزون الوراثي للبشر إلى مجرد ملكية صناعية، علاوة على ما سياتر عن ذلك من ثورة اقتصادية واجتماعية وثقافية وأخلاقية ذات أبعاد كونية يصعب تصور شكلها أو التنبؤ بعواقبها.

فقد تمكن العلماء من خلال مشروع الجينوم البشري، الذي تأسس سنة 1990 وبفضل التقنيات المتطورة من تشفير الجينوم البشري، وأصبح بإمكان الفرد أن يتفحص جيناته وأن يتعرف على الأمراض الوراثية التي يُتَوَقَّع أن يُصابَ بها في المستقبل القريب أو البعيد، مما قد ينجر عنه مشكلات اجتماعية وأخلاقية كثيرة، إذ الكثير ممن يشكون في احتمال إصابتهم بمرض وراثي ما، يحاولون الانتحار، فماذا يفيد الفرد إذا عرف أنه حامل للجين (المريض) وأنه سيصاب بمرض خطير في وقت محدد دون أن تتوفر إمكانية علاجه، سوى أن يجلس منتظراً قدره كمذنب حكم عليه بالإعدام وينتظر تنفيذ الحكم (69)، وهل من حق الآباء أو الحكومة من إجراء الاختبارات الوراثية على القصر أو الأجنة؟ وهل من حق الطبيب أن ينقل المعلومات الوراثية عن فرد ما إلى أفراد العائلة إذا كان هذا يعني احتمال أن يصاب بنفس المرض الوراثي؟ كما أن تشخيص الأمراض الوراثية في الأجنة سيؤدي إلى زيادة الإجهاض، والإجهاض أمر غير إنساني وغير أخلاقي (70).

- Gilbert Hottois , Qu' est – que la Bio éthique Chemins philosophiques ,p10.5

⁶⁹ أحمد مستجر: قراءة في كتابنا الوراثي، دار المعارف القاهرة، ص 50 - 51

المرجع نفسه، ص 70⁵⁷

إضافة إلى ما يمكن أن تتعرض له المعلومات الوراثية الخاصة بالأفراد من عمليات القرصنة والاستغلال من طرف شركات التأمين ومكاتب التشغيل التي يمكن أن تمارس بناء عليها عنصرية من نوع جديد وإقصاء للمهدين بالإصابة بالأمراض الوراثية الخطيرة من الاستفادة من التأمين والشغل والضمان الاجتماعي، والأخطر من هذا هل يمكن أن يكون التمييز العنصري بين الشعوب على أساس فروق وراثية أثبتتها العلم؟.

وقد أثار الإنجاب الاصطناعي مشاكل أخلاقية أخرى تتعلق بعدة مسائل منها مسألة التلقيح الاصطناعي وخاصة في حالة اللجوء إلى طرف ثالث متبرع بالمني، مما يطرح مشكل هوية الطفل وحقه في التعرف على والده البيولوجي؛ ومسألة الإخصاب خارج الرحم وما يطرحه من مشاكل تتعلق بانطلاق عملية "تصنيع الإنسان" والسعي لتغيير طرق الإنجاب الطبيعية؛ وبنوك المني وما تطرحه من مشاكل الاتجار في عناصر الجسم البشري وخاصة بعد الترويج لما عرف ببنوك مني العباقرة؛ ومسألة بنوك الأجنة وما تطرحه من مشاكل شروط حفظها، ومدى مشروعية التخلص من الأجنة الفائضة، ومشكل إنتاج أجنة بشرية خصيصا للبحث العلمي، وما يطرحه ذلك من تعارض مع مبدأ كرامة الإنسان؛ بالإضافة إلى مسألة استئجار الأرحام وما تطرحه من مشاكل تتعلق بامتهان إحدى الوظائف الإنسانية الأساسية التي تؤديها المرأة وهي وظيفة الأمومة، إلى جانب ما يطرحه ميدان الطب من مشكلات أخلاقية أخرى تتعلق بقضية الموت الرحيم، وزرع الأعضاء، وما تنتج عنها من مشاكل تتعلق بالمانحين والمستفيدين، وخاصة منها ما يرتبط بندرة الأعضاء القابلة للزرع، مما أدى إلى مشكل الاتجار بالأعضاء وتعرض الإنسان للاستغلال والامتهان.

وإذا كانت هذه القضايا التي طرحتها تطبيقات الهندسة الوراثية والبيولوجيا الجزيئية تستدعي وجود خطاب معرفي وأخلاقي قادر على استيعاب هذه القضايا، وجدير بمواكبة هذه التطورات المتسارعة للتقدم العلمي، وإذا كان الخطاب البيوايثيقي قد تولى هذه المهمة من منظور ايثيقي، من خلال دعوته إلى ضرورة تحديد مجموعة من القواعد الأخلاقية العملية المجالية، لتنظيم الممارسة داخل مختلف ميادين العلم والتكنولوجيا وما يرتبط بها من أنشطة اجتماعية واقتصادية ومهنية (أخلاقيات الطب، وأخلاقيات الاقتصاد، وأخلاقيات البيئة، وأخلاقيات المعلومات، وأخلاقيات الإعلام والاتصال ...) فإن فلسفة العلم حينما تتناول هذه المشكلات، إنما تتناولها من منظور ابيستمي، لا من منظور أخلاقي بحث، وذلك من خلال طرح تساؤلات جديدة تنصب حول المفاهيم، والأسس والمبادئ التي قام عليها علم البيولوجيا، وربطها بالسياقات المعرفية والتاريخية والفكرية والدينية والفلسفية التي نشأت فيها.

ان اغلب المشكلات التي أثارها التطبيقات التقنية في مجال البيولوجيا الجزئية ترتبط معرفيا بالتصور الكلاسيكي للعلم القائم على النظرة الآلية الميكانيكية للكون والوجود، هذا التصور الذي أرسى دعائمه "نيوتن"، ودعمته النزعة الوضعية والوضعية المنطقية التي فصلت العلم عن المعايير والقيمة والمجتمع، وجعلت من الفيزياء نموذجا ومعيارا للعلم، هذا الذي جعل أرنست ماير يقول: "إن أكبر سقطة لفلسفة العلم منذ نشأتها حتى وقت قريب، هي اتخاذ الفيزياء أنموذجا للعلم، ونتيجة لذلك أصبح ما يسمى "فلسفة العلم" مجرد فلسفة للعلوم الفيزيائية، (71) إلا أن الوضع تغير بفضل الجيل اللاحق من شباب الفلاسفة الذين تخصص أكثرهم في فلسفة البيولوجيا " تلك الفلسفة التي أثارت إشكالية العلاقة بين الوقائع و القيم أو العلم و الأخلاق ولهذا تدعو فلسفة العلم المعاصرة إلى إعادة النظر في المفاهيم الأساسية التي قام عليها علم البيولوجيا كمفهوم الحياة، ومفهوم الكائن الحي، ومفهوم القيمة وعلاقتها بالكائن الحي وبكل مظاهر الوجود، هل الحياة هي مجموع التفاعلات البيوكيميائية الحاصلة على مستوى الكائن الحي وبالتالي يمكن صنعها على مستوى المخابر، وهل الكائن الحي هو مجرد آلة مركبة من أجهزة ولوالب؟ أم إن مفهوم الحياة يتجاوز هذا التصور الميكانيكي الآلي الذي يعتبر الكائن الحي آلة تحكمها قوانين الفيزياء والكيمياء التي تتم على المستوى الجيني.

تدعو فلسفة العلم المعاصرة إلى إعادة مراجعة هذه المفاهيم، وإعادة تأسيس العلاقة بين العلم والقيم والواقع والمجتمع، بعد أن تم الفصل بينها في إطار التصور الوضعي للعلم، وإعادة ربط الصلة بين العلم وتاريخه وفلسفته، فقد كشف تاريخ العلم أنه يمكن الاستفادة من التجارب والطرائق التي عرفت بها المجتمعات القديمة في تعاملها مع الكائن الحي سواء في مجال الطب والعلاج أو في نظرتها القيمية للواقع والحياة.

وتثير فلسفة العلم قضية التوظيف السياسي والايديولوجي للعلم، فلم يعد العلم في منأى عن التلاعبات والحسابات السياسية الضيقة فهناك علاقة بين الفرضيات العلمية المدعّمة، والسلطة السياسية والمؤسسات القائمة، حيث تحول العلم والعلماء إلى وسائل وأدوات في خدمة الأنظمة السياسية، والشركات الاقتصادية العالمية، وهذا ما جعل فيلسوف العلم المعاصر "بول فيرابند" يقول: « إن فصل العلم عن الدولة يمكن أن يكون فرصتنا الوحيدة للتغلب على بربرية العصر العلمي والتكنولوجي ». (72)

- خالد قطب : فلسفة العلم التطبيقية، المكتبة الاكاديمية، القاهرة، 2011، ص 64. 71

72- P 383 Feyerabend : **Contre la méthode** , op cit

فلسفة العلم ومشكلات البيئة:

لقد أصبحت البيئة من الموضوعات الأساسية التي تحظى باهتمام الكثير من العلوم والتخصصات المعرفية، فقد غدت موضوعاً للأخلاق، والفن، والجمال، والدين، والعلم، والجمال،... وذلك نظراً لشدة وخطورة الأزمة التي أصبحت تهدد الحياة على كوكب الأرض، بسبب ما خلفته التطبيقات التكنولوجية من مشكلات من قبيل الاحتباس الحراري، والأمطار الحمضية، وثقب الأوزون، وتلوث الغذاء، وانقراض بعض الأنواع من الأحياء، وتراكم النفايات الكيماوية، والنووية والفقدان السريع للتنوع البيولوجي، والتغيرات المناخية، فالأزمة قد طالت الكرة الأرضية بجمادها ونباتها وحيوانها، في برّها وبحرها وجوّها، بسبب ما وفّرتة الثورة الصناعية والتكنولوجية من إمكانيات هائلة للإنسان ضاعفت طاقاته ومكنته من استغلاله للطبيعة.

لقد أدى التدمير المتزايد لعناصر البيئة إلى ظهور فعاليات مختلفة هدفها الدفاع عن البيئة والتصدي لأشكال الإضرار بها، وأدى من جهة أخرى إلى ظهور مجموعة من المصطلحات والمفاهيم الجديدة التي بدأت تنتشر في الساحة الفكرية المعاصرة، وتفرض نفسها على المهتمين بقضايا البيئة والتنمية والاقتصاد والصناعة ومنها: أخلاقيات البيئة، قوانين وحقوق البيئة، حقوق الحيوان الفلسفة البيئية، السياسات البيئية، أحزاب الخضر، جمعيات حماية البيئة، الحركة البيئية... الخ.

واهتمام فلسفة العلم بموضوع البيئة لا يتمثل في الدفاع عن قضاياها والتصدي لمختلف التصرفات الإنسانية اللامسؤولة تجاه مواردها، ولا في اتخاذ قرارات وإجراءات قانونية لأجل حماية البيئة والحيلولة دون استمرارها في التدهور، ولا تهتم بوقائع التلوث البيئي وأنواعه وأشكاله ومصادره، بل تتناول المشكلة من منظور تحليلي نقدي لوظيفة القيمة وتأثيرها على الأزمة البيئية انطلاقاً من مبدأ (قيمة الطبيعة)، والبحث في الجذور والخلفيات التاريخية والثقافية واللاهوتية والعلمية والفلسفية للأزمة.

الأصول الفكرية والفلسفية لأزمة البيئة:

لقد شكل التكوين الثقافي اللاهوتي (المهودي - المسيحي) رؤية الإنسان الغربي للبيئة والحياة، هذه الرؤية التي تمتد إلى نصوص الديانة اليهودية والمسيحية التي تم فهمها أو تأويلها بطريقة تجعل الإنسان مركز الكون وبقية المخلوقات قد سخرت لخدمته، فقد جاء في قصة الخلق كما رد في سفر التكوين أن الله تدرج في خلقه بدءاً بخلق الأرض وما عليها من ماء، وهواء، ونبات، وغيرها، ثم خلق الإنسان على صورته ومثاله ليكون سيداً على جميع المخلوقات فتحكم الإنسان في الطبيعة هو أمر مشروع من الله بل هو حق أعطاه الله لهذا الإنسان فكان

الإنجيل . على حد تعبير "توينبي" ⁽⁷³⁾ لم يسلب الطبيعة قداستها ورهبتها القديمة فحسب بل أنه نصح الإنسان بأن يقهر العالم والطبيعة.

لكن السؤال الذي تطرحه فلسفة العلم هل يمكن أن يكون الدين سببا في تكوين اتجاهات الإنسان العدائية نحو الطبيعة ؟ أم الأمر يتعلق بتوظيف الدين للأغراض خاصة من خلال تأويل نصوصه.

وقد اتخذت فكرة مركزية الإنسان طابعا فلسفيا وعلميا مع بداية الحداثة الغربية وتطور العلم التجريبي خصوصا مع (فرانسيس بيكون وجاليليو ونيوتن وديكارت) وما نجم عنها من ثورة صناعية في القرن الثامن عشر ستقود تدريجيا إلى سيطرة الإنسان وهيمنته على الطبيعة

لقد أكد "بيكون" أن المعرفة هي قوة الإنسان وليس ترفا فكريا، والطبيعة هي مملكة المعرفة الإنسانية، والميدان الوحيد المثمر والمأمول لسيطرة الإنسان وفقط ، وسيطرة الإنسان عن الطبيعة تكون عن طريق المنهج التجريبي ، وذلك بملاحظة الواقع والتفكير في مسار الطبيعة، فالإنسان عندما يحكم سيطرته على الطبيعة فانه يصبح سيد الكائنات وتاج الخليفة فيحقق بذلك وعد التوراة. ⁽⁷⁴⁾

وتكرست فكرة السيطرة على الطبيعة ومركزية الإنسان مع "ديكارت" من خلال فكرة الثنائية الأنا المفكرة/ المادة الممتدة، الإنسان/ الطبيعة، والذات/ الموضوع، فمع الثنائية الديكارتية صعدت الأنا والذات الإنسانية وهبط العالم إلى مجرد امتداد، وأصبحت الطبيعة بمثابة آلة ضخمة يمكن تفكيكها إلى أجزاء صغيرة بغية فهمها، وهذه الأجزاء تخضع لقوانين الميكانيكا، وغدا هدف الإنسان فهم القوانين الطبيعية للسيطرة عليها، وبذلك ترسخت فكرة مركزية الإنسان، وأهملت القيمة الذاتية للأشياء الأخرى في الطبيعة سواء كان حيوانا ، أو نباتا ، أو جمادا. أزمة البيئة ومبدأ قيمة الطبيعة:

تنطلق فلسفة علم البيئة في دراستها لقضايا ومشكلات البيئة من تساؤلات جوهرية تتعلق بمفهوم مركزية الإنسان وعلاقة الإنسان بالطبيعة، هل الإنسان وحده من يملك قيمة أخلاقية أصلية في الكون أم يمكن أن نعتبر أن الطبيعة والنباتات والحيوانات تمتلك بدورها قيمتها الخاصة باستقلال عن نفعها للبشر؟ وهل

73 - ماهر إسماعيل الجعفري :نحو فلسفة إيمانية للتربية البيئية في ضوء الرؤية القرآنية، المرجع نفسه، ص443.

74- حبيب الشاروني: فلسفة فرنسيس بيكون، الدار البيضاء، دار الثقافة، المغرب، 1981، ص 19

مسؤولياتنا والتزاماتنا الأخلاقية هي التزامات نحو الآخرين من البشر فقط أم تتعداهم لمختلف الأنظمة البيئية الأخرى؟ وهل على البشر مسؤوليات تجاه الأجيال القادمة أيضا؟

هل يجوز تدمير الأنظمة البيئية المختلفة بحجة التقدم التقني وتحقيق الرفاهية للإنسان؟ كيف يمكن التوفيق بين اطراد التقدم العلمي والمحافظة على بيئتنا؟ هل يمكن إيقاف هذا التطور التكنولوجي الرهيب في سبيل إنسانية الإنسان؟ وهل يمكن للعالم إذا أدرك أن لنتائج أبحاثه واختراعاته خطر على البشرية أن يتوقف عن البحث؟ ما مسؤولية العالم الباحث عن ما يهدد البشرية من أخطار؟

يرى فلاسفة علم البيئة أنه لا يمكن حل مشاكل البيئة إلا بإعادة مراجعة الكثير من المفاهيم التي ترسخت على مدى قرون من الزمن، ومنها مفهوم الثنائية الديكارتية الإنسان/ الطبيعة، ومفهوم المركزية البشرية، ومفهوم السيطرة، وإعادة تأسيس العلاقة بين الإنسان والطبيعة على التكافل والمحبة والاحترام لا على أساس السيطرة والتملك، وأن لا يكون شرط معرفة الإنسان للأشياء امتلاكها، ولا شرط العمل السيطرة.

تؤسس فلسفة علم البيئة لرؤية جديدة ولتصور جديد لمفهوم الأزمة البيئية، رؤية تقوم على ترقية الوعي بمسؤولية الإنسان عن المخاطر المحدقة ببيئتنا، وعن مسؤوليته الأخلاقية تجاه الأجيال القادمة، رؤية تدعو إلى مصالحة الإنسان مع الطبيعة، من أجل الحد من حالة الخوف والرعب من الموت الأخضر الذي يهددنا، علينا أن نقرر إقامة السلم بيننا لنحافظ على العلم من الحروب، وأن نقرر إقامة السلم مع الطبيعة لنحافظ على أنفسنا، يقول "ميشال سير"⁷⁵ أحد أبرز ممثلي فلسفة البيئة أن العقد الاجتماعي الذي نظر له "هوبز" و"لوك" و"روسو" لم يعد كفيلا لتحقيق السلم لأن الحرب قد أعلنت ضد الطبيعة لذلك تدعو الحاجة إلى عقد طبيعي يقوم على أساس مبدأ قيمة الطبيعة، وترقية الوعي الأخلاقي والمسؤولية الأخلاقية تجاه الأجيال القادمة.

خاتمة:

إن هذا الخطاب المعرفي الجديد لفلسفة العلم يكشف عن عمق التحولات المعرفية التي عرفتها والتي يمكن أن نحددها في النقاط التالية:

- تحول الاهتمام من منطق ومنهج المعرفة إلى سؤال القيمة، لقد أعادت فلسفة العلم تفعيل مبحث القيم وربط الصلة بين العلم والفلسفة والأخلاق بعد أن تم الفصل بينها في مرحلة التأسيس الابدستمولوجي للعلم.

- اهتمام فلسفة العلم بمشكلات البيولوجيا وقضايا البيئة، جعل منها فلسفة اقرب إلى واقع الإنسان وفلسفة عملية، لا تقدم حلولاً نظرية فحسب بل تسعى إلى تغيير الواقع .

- لقد ساهمت فلسفة العلم بفضل طابعها النقدي في الكشف عن الخلفيات السياسية والادبيولوجية والفكرية والتاريخية القابعة وراء هذه الثورات العلمية، والتي كان من نتائجها ما آل إليه هذا الواقع المعقد للإنسان المعاصر.

- إن الدرس الحضاري والمعرفي المستفاد بالنسبة لواقعنا، هو ضرورة ترقية الوعي ووعي الفرد العربي بالخصوص بالتحديات الناجمة عن هذه التطورات التقنية المتسارعة، وإدراك الخلفيات السياسية والادبيولوجية، القابعة خلفها، ذلك لأن دول العالم الثالث هي أكثر الدول عرضة لمخاطر هذه الأزمة، باعتبار أنها أصبحت سوقاً للتجارب العلمية، ومستودعاً للنفايات الكيماوية والنووية، وتتحدث بعض التقارير عن ضبط كميات من أنواع التغذية المعدلة وراثياً تحتوي على مهدئات وممنوعات أرسلت لبعض الدول الفقيرة كمساعدات إنسانية، هذا ناهيك عن الأدوية واللقاحات المستوردة، واستغلال الثروات الطبيعية من قبل الشركات الاقتصادية العالمية.

- والتساؤل النقدي الذي يمكن أن نختم به هذه الورقة البحثية هو: هل يمكن للأخلاقيات التطبيقية (في مجال الاتصال، والبيئة، والاقتصاد، والإعمال أن تساهم في حل أزمة ومشكلات الإنسان المعاصر أم يبقى الحديث عن هذه الاخلاقيات مجرد آمال وتصورات نظرية، مادام العلم والتكنولوجيا قد أصبح أداة وملكية خاصة للشركات الاقتصادية العالمية، والدول المتطورة؟

هوامش ومراجع الدراسة:

- 1- بدوي عبد الفتاح: فلسفة العلوم - العلم ومستقبل الإنسان إلي أين ؟ ، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة، 2007، ص 236.
2. سالم يفوت : العقلانية بين النقد والحقيقة ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت، ط2، 1989 ص 83
- 3 -P Feyerabend: contre la méthode esquisse d'une théorie anarchiste de la connaissance ,Tra Baudouin jurdant et Agnès Schlumberger, seuil, Paris 1979. p 332
- 4 . ناهدة البقصي: الهندسة الوراثية والاخلاق، (سلسلة عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون و الآداب الكويت)، العدد 175، 1992، ص 78
- 5- Gilbert Hottois , Qu' est – que la Bio éthique Chemins philosophiques ,p10.
- 6 - أحمد مستجر: قراءة في كتابنا الوراثي، دار المعارف، القاهرة، ص 50..51
- 7 - المرجع نفسه، ص 57
8. خالد قطب : فلسفة العلم التطبيقية، المكتبة الاكاديمية، القاهرة، 2011، ص64
9. P Feyerabend : **Contre la méthode** ,op cit p 338
- 10 - ماهر إسماعيل الجعفري :نحو فلسفة إيمانية للتربية البيئية في ضوء الرؤية القرآنية، المرجع نفسه، ص443.
- 11 - حبيب الشاروني: فلسفة فرنسيس بيكون، الدار البيضاء، دار الثقافة، المغرب، 1981، ص 19